كمال لقيس

وليمة لأعشاب البحر

كي لا تكون الثقافة وليمة لأكلة لحوم البشر

النسبيَّة والإطلاق

أودّ، بدايةً، تسجيل بدهيّةٍ مؤدّاها أنّ النتاج الفكريّ لا يُواجَه بإقامة الحدّ على صاحبه أو التهديدِ بإحراقه، بل يُقارَع بنتاج يجادله. ومن هنا نفهم لِمَ لَمْ يردَّ الشيوعيُّون اللبنانيُّون على اغتيال حسين مروة صاحبِ الكتاب الموسوعيّ العملاق: **النزعات الماديَّة في الفلسفة العربيَّة الإسلاميَّة**، الذي صَدَرَ في جزءين (ولم يُمْهله المجرمون لينجز الجزءَ الثالث)، أو لم يردّوا على اغتيال حسن حمدان (مهدي عامل) صاحب الردّ على الخطاب الطائفيّ العبثيّ في كتاب **نقد الفكر اليوميّ**. فهم قد تعالَوْا على الجرح الذي لا يندمل، حتى لا يصبح الاستثناءُ قاعدةً تَحْكم المستقبل.

إنّ مَثَلَ الذي يدّعي امتلاكَ الحقيقةَ كاملةً كمَثَلِ الذي يدقّ مسماراً في الهواء ـ بل لعلّه أن يكون الجاهلَ الوحيدَ على هذه البسيطة. اذ كيف لعاقل أن يتقبّل منطقَ النظرة الأحادية الجانب الى الحقيقة، في عالمٍ يحوي مليارات من البشر المختلفين ديناً وتاريخاً ولوناً وعرقاً وظروفاً ومعاشاً وخُلُقاً وأهواءً ومصالحَ؟ أفلا تظنّ يا مَنْ تحتكر الحقيقة وتصادرها، أعلمانيّاً كنتَ أم مؤمناً ملتزماً، أنّ كلّ فرد من هؤلاء البشر يَمْلك حقيقةً مطلقةً في نسبيتها، فإذا ما تبدلت الظروفُ تغيَّرتِ الحقيقةُ؟ ولتوضيح هذه الفكرة، دعونا نضربْ مثالَيْن تدليلاً على نسبية الحقيقة:

١ ـ إنّ وزن الجسم ـ أيْ علاقته بجاذبية الأرض ـ يتغير كلما ابتعدنا عن مركز الأرض إلى القطبين، أو عَلَوْنا عن سطح الأرض، حتى يصبح على سطح القمر مثلاً سدسَ وزنه الفعليّ على الأرض.

٢ ـ في معرض الردّ على سؤالٍ عن الزواج المدنيّ، في برنامج «كلام الناس» على شاشة المؤسسة اللبنانيّة للإرسال (LBC) أجاب السيد محمد حسين فضل الله أنّ هذا الزواج شرعيٌّ بمنظور العلمانيّ، وإنْ كان بحسب الشريعة الاسلاميَّة غيرَ شرعيٍّ بل إنه فعلُ زنًى (بمعنى من المعاني).

فإذا كانت سيرورة الطبيعة وصيرورتها تقومان على التناقض، فما بالك بالبشر الذين تحرّكهم رؤى فكريّةٌ ومواقعُ اجتماعيّةٌ متناقضةٌ بل ومتناحرة؟

الكتابة بين فكّي التمساح السلطويّ

وبعد سبعة عشر عاماً على إصدار رواية **وليمة لأعشاب البحر** للكاتب العربيّ السوريّ حيدر حيدر، عمدتْ وزارةُ الثقافة المصريّة الى طبعها من جديد. وهذا ما أثار ثائرةَ صحيفة **الشعب** ذاتِ التوجُّه الإسلاميّ، فكفَّرتِ الكاتبَ والناشرين، وتظاهَرَ طلاّبُ الأزهر، فذكَّرونا من جديدٍ بقضية نجيب محفوظ ونصر حامد أبي زيد ومارسيل خليفة وغيرهم.

ردُّ الفعل هذا يَطْرح علينا بإلحاح تحديدَ ماهية الكتابة. فإذا كانت الثقافةُ معرفةً وتحليلاً ونقداً وتجاوزاً، فالكتابة رهانٌ كبير وتحدٍّ أكبر للذات والآخر. بل إنّها حرب مفتوحة أبداً على احتمالات الإخفاق والنجاح. وللكتابة ـ كالحرب ـ منطقُها وأدواتُها وساحتُها وآثارُها. لكنها، بخلاف الحرب، لا تَفْقد صدقيَّتها ومشروعيَّتَها ما دامت تستمدّ من الحياة موضوعاتِها، مشكّلةً مع هذه الحياة علاقة جدليّة قائمةً على التأثُّر والتأثير. وبقدر ما تنتقل الكتابة، بطرحها الإشكالاتِ والالتباساتِ، من الانفعال إلى الفعل، تصبح تحريضيّةً تعليميّةً هادفة. وبعبارة أدقّ، فإنّ المراد للكتابة أن تَقْلب مقولة «في البدء كان الفعلُ ثم جاءت الكلمة». فلا تعود مؤرِّخةً محلِّلةً للخبر أو الحدث، بل ترقى الى مستوى صنع الحدث والفعل المستقبليّ.

لا أتوخى هنا إلاّ أن أضع القارئ الكريم أمام مسؤوليّته حيال الموضوعات الأكثر حساسيّةً والتصاقاً بالقضايا الإنسانيّة الكبرى. كما أطلب منه وأُطالبه، سواء اتفق معي أم اختلف، أن يعمِّم احترامَ شعار «حرية التساؤل والسؤال» في عصرٍ أصبح فيه التهافتُ سيِّدَ الموقف، وأخذ الابتذالُ يغشى العيونَ والألباب، وبات النفاذُ

إلى كنه الأمور اغتراباً وخروجاً عن المألوف الموسوم بالاجترار وبذبح المثقف بين فكّي التمساح السلطويّ الذي يتخفى دائماً خلف الحالة الأصوليّة.

غير أنّ هذه الحالة هي بدورها ضحيّةٌ لفقدانها لمشروع عصريّ، وهذا ما يَحْرمها الإمساكَ بزمام السلطة السياسيّة، وتُحمّل ـ قصداً ـ تبعاتِ الأزمات السياسيّة والاقتصاديّة الدوريّة الناجمة عن فساد الطاقم وتعفُّنِه وتشبُّثه بكرسيّه. وعليه فما الذي يَمْنع أية وَزارةٍ للثقافة بوصفها أداةَ القمع الأرقى للمثقف النقديّ، وشاهدَ الزُّور الأحرص على تستير عورة نظامه، أن تتعمّد إعادةَ نشر روايةٍ يثار حولَها جدلٌ عنيفٌ، يُتَرْجَم عنفاً وعنفاً مضاداً، لتضليل الرأي العامّ عن الحقيقة، وتغييرِ وجهة الصراع الاجتماعيّ وإدخاله في نفقٍ مظلم يوصل إلى حالة لا أفق لها، ويؤدي من ثمّ خدمةً جليلةً للشرق أوسطيّة والتطبيع السوسيو ـ ثقافيّ؟

هذا الكلام لا يبرِّر ردّة فعل طلاب الأزهر وصحيفة **الشعب** الانفعاليّة واللاعصريّة، لكنّه يؤكّد مسلّمةً مفادها أنّ السلطة القائمة، التي تَفْقد يومياً مسوِّغات استمراريتها، تحتاج إلى كبش فداء يُقدَّم قرباناً لتغطية فظاعة السائد المستعصي على الاستئصال. ولا غرابة في حال كهذه أن تتصدَّر التنظيماتُ الإسلاميّةُ المواجهةَ، لكونها تملك رؤيةً تَجْهد من خلالها في إسقاط ماضٍ على حاضرٍ مغايرٍ أصلاً وتفصيلاً.

أفكار الرواية «الخطرة»

ولندخلْ في مناقشةِ أخطرِ ما ورد في الرواية (وفق جريدة **الشعب** المصريّة)... بعد التأكيد على أنّ الكاتب لا يدعّي إلحاداً، بل هو (في تصاريحه الصحفيّة) مسلم مستنيرٌ يقول بضرورة الحوار والإقناع بالتي هي أحسن. ثم لماذا نعتبر ـ مسبّقاً وقصداً ـ أنّ شخصيّة الملحد في الرواية تعبِّر عن وجهةِ نظر الكاتب؟

١ ـ تأخذ جريدة **الشعب** على حيدر حيدر نعتَه نبيَّ الإسلام بـ «المزواج». ولكنْ بعيداً عن الإساءة الأخلاقية (وهي غير مقصودة مطلقاً)، وبصرف النظر عن موقف الكاتب من هذا الموضوع، فإنّه يقرِّر واقعاً ماضياً. وكلمة «مزواج» تعني لغويّاً الكثيرَ التزوج، وهي صفةٌ مبالغة على وزن «مِفْعال» كما أنّ «المقدام» هو الكثير الإقدام. ورُبَّ مصطادٍ في الماء العكر يُصِرُّ على إلصاق تهمة الإساءة الى النبيّ بالكاتب، فنسارع بالردِّ عليه متسائلين: هل يمكن أن تسيء التوراةُ إلى نبيِّها سليمان بن داوود الموصوف بـ «الحكيم»، عندما تتحدَّث عن أزواجه؟[1].

٢ ـ وردتْ في الرواية عباراتٌ تَخْدش ـ بنظر معارضيها ـ الذوقَ العامَّ، وتنافي الحشمةَ والأهدافَ والتقاليدَ. فقد جاء على لسان ممرِّضة قولَها: «أعمالٌ حُرَّة تحت السُّرة» (ص ١٣٦)، وعلى لسان طبيبة قَولَها: «إمّا الإعارة أو الدَّعارة» (ص ١٤١). ولكنْ ما هو دور الروائيّ؟ وما هي القيمة الأدبيّة لأيّة رواية إذا ما اكتفتْ بإبراز الإيجابيّات أو ما يَعتقد القارئُ أنّه كذلك؟ وإذا كان الناس متفقين حول الدِّين والعائلةِ والدولةِ والحريةِ والعدالةِ والتاريخ والجنس... إلخ، فما جدوى تسطيرَ المقالات والروايات والآثار الفقهيّة والفكريّة؟ وفي هذا السياق، لماذا نَعْتبر المتصوِّفَ أو الزاهدَ في الدنيا أو المتزمتَ في تفسير الأمور ـ كلِّ الأمور ـ بطلاً، ونَشْتم ونحقِّر السوقيَّ الذي ضاق صدراً بالقيم الجوفاء وانساق وراء ملذاته؟... علماً أنّ الاثنين ينتميان إلى مجتمع واحد، ويعانيان ظروفاً مشتركة، ويكابدان شظفَ العيش وصعوبةَ تحصيل اللقمة، فهما ـ بذلك ـ قد عبَّرا عن أزمة واحدة، وهَرَبا من مواجهة مجتمعٍ مسخٍ يفرز مواطنين مسوخاً ولا يحقِّق العدالة الاجتماعيّة.

أضفْ إلى ذلك، أنّ نقد الدِّين والتاريخ والتراث والجنس والكبت هو مادةُ حديثٍ يوميّ عند العامّة والخاصّة. فلماذا عندما يتحوّل هذا الحديث إلى عملٍ فكريٍّ أو أدبيٍّ يعبِّر عن فظاعة الواقع تقوم الدنيا ولا تَقْعد؟

٣ ـ وَصَفَ الملحدُ اللّهَ في الرواية بأنّه «فنانٌ فاشلٌ»، وهو ما انتقدته جريدة **الشعب**. ولكنْ كيف يصفُ الملحدُ اللّهَ بأنّه فنانٌ فاشلٌ، وهو الذي يُنْكر وجودَه أصلاً؟ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإذا كان الملحدُ كافراً أو مرتدّاً أو لديه شكوكٌ وأسئلة حول الخلق ونبوّة الأنبياء، فهل يُعقلُ انطلاقاً من طبيعة شخصيّته أن يَنْعت اللّهَ بالحق والرحمة والعدل؟!.

---

١ ـ **الكتاب المقدّس ـ العهد القديم**، دار المشرق، بيروت، طبعة ١٩٨٩، سِفْر الملوك الأول، صفحة ٦٥١ في باب «نساء سليمان»: «وأحبَّ الملكُ سليمان نساءً غريبةً كثيرةً مع ابنة فرعون، من المؤابيات والعمّونيّات والأدوميّات... من الأمم التي قال الربُّ لبني إسرائيل في شأنها: 'لا تذهبوا إليهم ولا يذهبوا إليكم، فإنّهم يستميلون قلوبكم إلى اتّباع آلهتهم'... وكان له سبع مئة زوجة وثلاث مئة سُرِّيّة (جارية)... وتبع سليمان عشتاروت إلهة الصيدونيّين... فغضب الربُّ على سليمان، لأنّ قلبه مال عن الربّ... ». ويُستدلّ من هذا النصّ أنّ ربّ اليهود لم يؤنِّب سليمان على كثرة تزوُّجه، بل على ميله عن الربّ.

حـــوار بين المؤمن والملحـــد

وهنا أستوقف القارئ الكريم وأقول لطالب الأزهر العزيز، أخي في المصاب والمصير: «تعالَ ننسَ انفعاليةَ اللحظة، ولنُقِمْ حواراً متخيَّلاً بسيطاً وهادئاً بين مؤمنٍ وملحدٍ حول أهميَّة دور النبيّ في تاريخ البشريَّة».

- **المؤمن**: إنَّ اللَّه وَضَعَ، بمشيئته أو بعلمه الإلهيّ أو الغيبيّ، صفاتٍ في النبيِّ تؤهِّلهُ لِنشرِ الدين الحنيف على العالمين. فتسلَّح النبيُّ ببيانه وشريعته وجيشه وإيمان أنصاره، وتعالى على اتهامه بالمجنون أو الشاعر أو الساحر، فعمّم نصرَ الله والفتح، وبَسَطَ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

- **الملحد**: أنت تقرُّ بأنّ النبيّ لا يملك شيئاً من أمره؛ وهذا ما أكّده القرآنُ منذ البداية عندما خاطب الوحيُ (جبرائيل) النبيَّ قائلاً: ﴿يا أيُّها المدَّثِّر قمْ فَأَنْذِرْ﴾، وحين وصف النبيَّ بأنَّه ﴿ومَا يَنْطِقُ عن الهَوَى﴾ وأنَّه ﴿إنْ هو إلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾. والحق أنّ النبيّ لظروف ذاتيّة (كالعوز، واليتم المبكّر، والانتصار للمقهورين، واستشعار الخلل الاجتماعيّ في الملإ المكيّ، ولنزعةٍ إنسانيَّةٍ إلى العدالة الاجتماعيَّة، وبهدف الاتّصال ببعض الأحناف الكبار[1] والاطّلاع على تراث بعضهم الآخر)، ولظروف أخرى موضوعيّة (كاستفحال ظاهرة الرِّبا، وقهر العبيد، ووأد البنات، والفساد الأخلاقيّ المستشري، وهيجانِ المجتمع المكّيّ بالتناقضات، والصراع المحتدم بين بني هاشم - أهل النبيّ - ذوي السمعة الطيِّبة وبني أميَّةَ ذوي النفوذ والجاه والقوافل التجاريَّة المتنقلة بين الشام واليمن مروراً بمكة)... أقول [والكلامُ لِلْمُلحد] إنَّه لظروف ذاتيَّة وموضوعيَّة قاد النبيُّ هذا الحدثَ الجللَ الذي بدَّل وجهةَ الخارطة السياسيَّة والجغرافيَّة للعالم القديم، وأثار على مدى أربعة عشر قرناً الجدالَ والسؤالَ، وسُطِّرتْ حوله ملايينُ الكتب، واجتذب المستشرقين؛ ويشرِّف المسلمين أن يقول الدكتور مايكل هارت بالنبيِّ رأياً سديداً[2].

مَنْ أَنصف النبيّ أكثر؟

وبإمكان المرء أن يتخيَّل حواراتٍ أطول ما بين المؤمن والملحد. ولكنْ لو تصوَّرنا حوارهما السابق وحده فلنتساءل: تُرى مَنْ أنصف النبيّ أكثر؟ فليجتهدِ القارئُ الكريمُ في الاجابة عن السؤال!

اقتراحات

وكي لا يكون المثقفُ طبقاً شهياً على مائدة الاحتمالات، ولا تصبحَ الثقافةُ وليمةً للطحالب وأكلةٍ لحوم البشر فوق أوانٍ من القهر والاستلاب، أدعو معشر المثقفين العرب إلى تبنِّي صيغةٍ مّا للعمل الجماعيّ أو إلى مناقشة المشروع - الاقتراح التالي وإغنائه:

١ - إنشاءُ هيئة عليا للثقافة، تكونُ المرجعيةَ الصالحةَ في بتِّ النزاعات الناشئة مع الجهات المعنيّة (من وزارة الثقافة إلى الأمن العام والقضاء وغير ذلك...)، وفي تغطية المادة موضوعِ الخلاف إعلاميّاً... وانتخابُ مندوبٍ لهذه الهيئة في كل قطرٍ عربيٍّ.

٢ - العملُ الدائب على حثّ الدول العربيَّة على إصدار قانون «حصانة المثقف».

٣ - التسليمُ بمبدإ «حق الاختلاف»، والاعترافُ بالآخر المختلِف.

٤ - إحياءُ يوم «المثقّف العربيّ»، وإقامةُ الندوات، وتسطيرُ المقالات في هذه المناسبة.

٥- تحفيز الإبداع عبر جائزةٍ معنويَّةٍ سنويَّة (وسام استحقاق من رتبة «فارس عربيّ» مثلاً) أو ماديَّة إذا تيسَّر ذلك.

٦ - مطالبة المعنيِّين بتأمين حيِّز أوسع للمثقف في وسائل الإعلام الرسميَّة المقروءة والمسموعة والمرئيَّة.

ولتَرْفعْ هذه الورشةُ الفكريَّةُ المرجوَّةُ شعاراً مستمدّاً من شعر خليل حاوي: «من كهوف الشرق، من مستنقع الشرق، إلى شرق جديد».

شتورة (لبنان)

---

١ - الأحناف الكبار هم: زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن جحش، وأمية بن أبي الصلت، وقسّ بن ساعدة الإياديّ، والراهب بحيرى، وورقة بن نوفل الكاهن النصرانيّ الذي كان يتزهَّد في غار حرّاء في الأشهر الحُرُم ويقال - حسب رواية الطبري واليعقوبي وفي **السيرة الهشاميّة** - إنَّه هو مَنْ بشَّر بالنبيّ، حتى إنّ خديجة بنت خويلد - ابنة عمه - قصدتْه مسرعةً عندما ظهر الوحيُ على النبيّ وقال له: ﴿يا أيُّها المدَّثِّر قمْ فَأَنْذِرْ﴾ فأخذ يرتجف، وأبلغ أمره إلى خديجة. وأكثر من ذلك، فقد كاد النبيُّ عند موت ورقة أنْ يتردّى من شواهق الجبال، وفتر الوحيُ عاماً ونصف العام لغيابه (**تاريخ الطبري**)

٢ - الدكتور مايكل هارت أميركيّ الجنسيَّة والمولد نال على التوالي: إجازة في الرياضيات (عام ١٩٥٢)، وإجازةً في القانون عام (١٩٥٨)، وماجستيراً في العلوم (عام ١٩٦٩)، ودكتوراه في الفلك (عام ١٩٧٢). وهو في كتابه **المائة الأوائل** (دار قتيبة، الطبعة السادسة، عام ١٩٨٧)، يصنِّف النبيَّ محمداً في رأس القائمة، يليه اسحق نيوتن. ويعلِّل اختياره هذا على غلاف الكتاب بالقول: «إنَّ اختياري محمداً ليكون الأوّل في قائمة أهم رجال التاريخ قد يُدهش القرّاءَ، ولكنّه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح على المستويَيْن الدينيّ والدنيويّ».